عتاق ، حليت جدرانها بالنقوش والرموز والتهاويل ... ولقد تقف أمام قبو متطامن، أو بوابة أثرية ، أو مدخل مظلم لدار تقادم عليها الزمن ، فترف على خاطرك أطياف من معالم معهودة لك ، حبيبة إلى قلبك ، هى معالم «خان الخليلى» و «التربيعة» فى القاهرة ، وسرعان ما تحس انقباضاً وحسرة ، إذ ترى هذا الذى يطالعك الساعة فى «كوار» يمثل الماضى فى إحسان صقل، وإبداع تنسيق » فيبرز محاسن هـذا التراث ، ويزيده من تألق وإشراق ... أما فى «مصر» خاصة ، وفى الشرق عامة ، فإن تراثنا الثمين على جمال سماته، وفتنة سحره ، يبدو وقد شوهه الإهمال ، فأفقده الجمـال ! ...

وابتغينا المحطة نطلب القطار ، قطار الضواحى الجبلية، المتسم بطابع الأناقة والرشاقة ، فانساب بنا إلى أطراف البلدة ، يُشهدنا ذلك الطوار العريض المظلل بالعرائش الخضر ، تحتمى بها المطاعم والمشارب والأندية ...

وزاملنا النهر ، فضى اللون بسام الطلعة ، تتوالى عليه قناطر من الصخر ، والقطار على هينته يتعجل ، حتى لايفوتنا التأمل ، ثم يرتقى بنا مدارج الجبال ، فتنكشف لنا الغابات متراصة على السفوح، وتنزاحب دوننا المهاوى السحيقة يترقرق بين أحضانها النهر الفضى الوادع ، وتباغتنا الأنفاق واحداً بعد احد ، فتسلمنا إلى القناطر